حول مشروع بحيرة طانا

تضاربت البيانات وأقوال الصحف فى الأيام الأخيرة حول هذا المشروع ؛ فلا تكاد تقرأ فى الصحف أن هناك محادثات بين وزير التجارة فى مصر ووزير أشغال أتيوبيا بشأن هذا المشروع حتى يبادر وزير الأشغال الأتيوبى بتكذيب الخبر . ولا يكاد رئيس الوزراء أو وزير الأشغال فى شهر يوليه الماضى يصرح بأن بحث مسألة إنشاء خزان طانا يبدأ من جديد فى شهر اكتوبر ، ولا يكاد يقول إن الوزارة ستوفد إلى أديس أبابا بعض رجالها لمفاوضة حكومة أتيوبيا ، حتى تقرأ فى جريدة « الأثيوبيان هرالد » التى تصدر فى أديس أبابا نفياً رسمياً من الحكومة الأتيوبية ، فحواه أن شيئاً من هذا لم يكن .

وأنت إذا ذهبت إلى وزارة الأشغال أو وزارة الخارجية للاطلاع على الأوراق الخاصة بهذا المشروع قيل لك إن كل ما يتعلق بالمشروع سحب وأودع الخزانة السرية تمهيداً لإعادة النظر . والواقع أن فيضان هذا العام كان باعثاً على إحياء التفكير فى المشروعات المختلفة التى من شأنها أن تنظم توزيع مياه النيل من جهة ، وتزيد من مساحة الأرض المزروعة من جهة أخرى . ونال مشروع بحيرة طانا — على ما يظهر — نصيباً من الاهتمام . إلا أن هذا المشروع يختلف فى طبيعته عن غيره من المشروعات المقترح تنفيذها فى السودان ؛ لأنه يقع فى بلاد الحبشة ، ويحتاج تنفيذه إلى موافقة الحكومة الأتيوبية .

فالمسألة إذن ليست مقصورة على الدراسات والبحوث الفنية من جانب رجال وزارة الأشغال فحسب ، بل تخضع أيضاً لسياسة وزارة الخارجية .

اسم البحيرة

تسمى باللغة الأمهرية طانا (بالطاء لا بالتاء) ، واسمها فى اللغة الحبشية القديمة تصانا (بإسكان التاء) ، واللغة الأمهرية تبدل الصوت « تص » فى

الحبشية القديمة بـ «طاء» . وقد أطلق عليها رجال البرتغال فى القرن السادس عشر الميلادى بحيرة دامبيا باسم المقاطعة التى تتاخمها من الشمال .

ارتيادها

إن دخول المرسلين اليسوعيين إلى الحبشة فى القرن السادس عشر أتاح لهم ارتياد بعض مناطق البحيرة . وقد وصل القسيس پايز إلى المناطق المحيطة بالبحيرة ، فتوصل إلى معرفة منبع النيل الأزرق . ثم توجه الرحالة الأسكتلندى جيمس بروس بين سنة ١٧٦٨ وسنة ١٧٧٣ من اللحيّة على ساحل اليمن إلى مصوع فبلاد الحبشة للكشف عن منابع النيل . وقد استصحبه الإمبراطور تكلا هيمانوت (١٧٦٩ — ١٧٧٧) فى بعض حملاته التأديبية حول بحيرة طانا . وبذلك سنحت لبروس فرصة لم يكن يتوقعها ، إذ رأى منبع النيل الأزرق . وإليه يرجع الفضل فى تحديد مكان البحيرة بالضبط ووصفها وصفاً مفصلاً .

وفى سنة ١٨٣٩ أرسلت الحكومة الفرنسية بعثة علمية وصلت إلى المناطق المحيطة ببحيرة طانا ، كما قام القنصل الفرنسى فى أتيوبيا انطوان دابادى برحلة حول البحيرة سنة ١٨٤٢ .

وفى سنة ١٨٨٠ سافر الألمانى انطون شتيكر فى مهمة سياسية لدى الإمبراطور يوحنس ، فزار البحيرة وحدد مركزها ورسمها على الخريطة .

ثم أرسلت الجمعية الجغرافية الإيطالية سنة ١٩١١ أحد علمائها لدراسة البحيرة بعد أن رأت اهتمام فرنسا وبريطانيا بإرسال عدة بعثات بين سنة ١٩٠١ وسنة ١٩٠٨ ثم توالى إرسال البعثات من الحكومتين المصرية والسودانية توطئة لدراسة مشروع الخزان .

وقد كلفت الأكاديمية الملكية بروما العالم الإيطالى دايتيلى سنة ١٩٣٧ أى أيام الاحتلال الإيطالى للحبشة بدراسة البحيرة من الناحية العلمية والاقتصادية .

وصفها

إذا اتخذ المسافر أحسن الطرق الموصلة إلى بحيرة طانا مارًّا بمدينة جوندار فانه لا يكاد يبتعد عنها مسافة أربعين كيلو متراً حتى يصل إلى البحيرة. ومع وجود الرحلات المختلفة إلى البحيرة فإن النتائج التى وصلت إلينا وخاصة عن الارتفاعات والمساحات فيها لا تخلو من فروق. ولكن الطليان أيام احتلالهم الحبشة أمكنهم أن يحققوا الكثير منها: فالبحيرة تقع على ارتفاع ١٨٤٠ متر فوق سطح البحر، على شكل قلب طوله ٨٥ كيلو متراً من الشمال إلى الجنوب وعرضه ٦٥ كيلو متراً من الشرق إلى الغرب. ومساحة سطح الماء فى البحيرة حوالى ٣٦٣٠ متر مربع. وتبلغ مساحة حوضها حوالى سبعة عشر ألفاً من الكيلو مترات المربعة وهو صغير نوعاً. ومنطقة البحيرة غزيرة بأمطارها. ويصب فيها من المرتفعات المحيطة بها نحو ستين جدولا ونهيراً، اهمها أبّاى الصغير. وهى تحمل معها طبقة من الغرين تتركها على جوانب البحيرة بعد انقضاء موسم الأمطار. وأما منطقتها فبركانية، بها بعض عيون معدنية، وقد وجد الفحم فى جنوبها الشرقى وشمالها كما عثر على الحديد فى شرقها.

وعلى مقربة من قرية بحر دار جيورجيس فى الجنوب الشرقى من البحيرة حيث تكثر أعشاب البردى ينبع النيل الأزرق أو كما يسمونه أبّاى ومعناه الأب. وهذا يدل على منزلة النهر عندهم. وتذكرنا هذه التسمية باسم النيل عند قدماء المصريين. ويبلغ طول النيل الأزرق من منبعه إلى مصبه ١٤٠٠ كيلو متر. وتصب فيه روافد عديدة تحمل إليه المياه من مقاطعات الأمهرا وولّلو وشوا. وتغذى بحيرة طانا النيل فى مصر بمتوسط ٦ فى المائة من المياه. ويمر النيل الأزرق بطائفة من السدود بقدر خروجه من البحيرة. وأشهر هذه السدود يبعد ٢٦ كيلو متر من منبعه، وبه مساقط المياه طيس وها ومعناها الماء المدخن، أو كما يسمونها أيضاً طيسيسات أى الدخان الكثيف. وهذه المساقط من أروع وأجمل المناظر الطبيعية فى العالم؛ إذ تهبط المياه من ارتفاع ٤٥ متراً وسط حقول مزدهرة، فيها خاصة زهر الاركيديه (الزراوند). ومما ينشأ من سقوط المياه من هذا الارتفاع أنها تتحول إلى ذرات تشبه الدخان، ومن هنا كان اسم المكان.

الجزر

يرتبط تاريخ الحبشة وأساطيرها ارتباطاً وثيقاً بجزر بحيرة طانا التى تبلغ ٣٧ جزيرة . وقد كانت منذ أقدم العصور موطناً للقبائل المنتشرة فى تلك الجهات ، تلجأ إليها طلباً للأمن من الوحوش أو الأعداء . ولبحيرة طانا أهمية دينية ازدادت منذ انتشار المسيحية فى الحبشة فى القرن الخامس الميلادى . وقد أخذ رجال الدين فى إقامة الديارات والكنائس ليكونوا فى نجوة من الغارات المختلفة ، كما فعل أسلافهم من قبل .

ويذكر القصص الحبشى القديم أن العذراء مريم عند هربها إلى مصر مع طفلها يسوع المسيح من وجه هيرودس الملك التجأت إلى جزيرة طانا قيرقوس وهى جزيرة صغيرة من جزر البحيرة . وقد اختبأت العذراء بها ثلاثة أشهر وعشرة أيام . ويؤمن الأحباش إيمانا بهذه القصة وأمثالها ، لذلك يحجون إلى الجزر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وفى كل جزيرة على وجه التقريب كنيسة أو أكثر ، لكل منها قصة يتناقلها الناس ويحرص رجال الدين على الاحتفاظ بها ونشرها حتى يبقى الناس على حجهم وزياراتهم .

ومما يروى عن جزيرة طانا قيرقوس فوق ذلك أن تابوت العهد حفظ فى الهيكل الذى كان قائماً فى الجزيرة ، والذى حوّله ملكا أكسوم — وهما ألا أصبح والا أبره — إلى كنيسة موسومة باسم القديس قيرقوس . وكان تابوت العهد قد سرق من بيت المقدس وحمل إلى الحبشة . ويقال إن أول كاهن لهذا المكان هو عزاريا بن صادوق رئيس الكهنة فى أيام سليمان الحكيم . وهو الذى صحب إلى بلاد الحبشة منيليك الأول ابن ملكة سبأ الذى أنجبته من سليمان . وتذكر القصة أن التابوت ظل هناك ستة قرون قبل نقله إلى مدينة أكسوم .

ثم وجدت فى هذه الجزيرة كأس من المعدن عليها نقوش سبئية . ووجدت أيضاً إلى جانب الكنيسة ثلاثة أعمدة حجرية بها تجويف مستدير يدل على أنها كانت تستعمل فى العبادة قبل دخول المسيحية . وعلى أحد الأعمدة صليب يقال إن القديس فرومنتيوس الذى أدخل الدين المسيحى إلى الحبشة فى القرن الرابع نقشه بيده إشارة بذلك إلى انتصار النصرانية .

اما جزيرة ميطراها فهى جزيرة صغيرة ، بها كنيسة شيدها منيليك الثانى فوق قبر أم الملك يوحانس . وبها أيضاً قبر الإمبراطور إياسو الأول (١٦٨٢ — ١٧٠٦) . وترى هناك آثار كنيسة كان قد بناها الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) وأحرقها محمد بن ابراهيم الغازى المعروف بجرانيا (أى الأشول) فى القرن السادس عشر ، ثم أعاد بناءها الإمبراطور يوحانس الأول (١٦٦٧ — ١٦٨٢) ثم أحرقها الدراويش .

وقد هاجم الإمبراطور تيودور (١٨٥٥ — ١٨٦٨) هذه الجزيرة بالمدافع وأحرق مساكنها .

وعلى جزيرة دبرا مريم المستطيلة الشكل الواقعة عند منبع النيل الأزرق أقام الإمبراطور تيودور كنيسة على أنقاض الكنيسة التى بنيت فى عصر الإمبراطور عمداصيون (١٣١٤ — ١٣٤٤) . ومما يذكر عن الإمبراطور عمداصيون هذا أنه اشتهر فى أوائل حكمه بأعمال الفسق والفجور ، فحرمه الأنباهونوريوس من الكنيسة ، فاغتاظ الإمبراطور لهذا فأمر بالأنبا ان يجلد حتى يسيل دمه على مرأى من أهل المدينة . وفى مساء اليوم نفسه احترقت المدينة ، فقال رجال الدين إن دماء هونوريوس استحالت لهباً . ولكن الإمبراطور اعتقد أن رجال الدين هم الذين أشعلوا النار فى المدينة ، فأخذ فى اضطهادهم ، حتى هرب الكثير منهم إلى جزر بحيرة طانا معتصمين بها .

وهذا الإمبراطور هو الذى بعث سنة ١٣٢٥ ميلادية برسالة إلى السلطان الناصر يحتج فيها على اضطهاده للأقباط ويهدده باضطهاد العرب الساكنين فى أتيوبيا ، كما هدده بمنع الماء عن مصر وتحويل مجرى النيل إلى الصحراء .

وفى جنوب البحيرة تقع جزيرة كبران المستطيلة الشكل ، وهى مكونة من صخور بركانية تراكمت طبقات بعضها فوق بعض . وترى فى أبرز مكان من الجزيرة كنيسة جبريل التى أعاد بناءها الإمبراطور إياسو الأول على أنقاض كنيسة كان قد بناها الإمبراطور عمداصيون ، وقد استعان فى بنائها بصناع من الأجانب . والكنيسة مستديرة الشكل على مثال كنائس جوندار . وقد جلبت حجارتها الجيرية من منطقة دنسا ، وأقيم فى الهيكل اثنا عشر عموداً من الحجر الأحمر .

ودفن فى هذه الجزيرة الإمبراطور تكلا هيمانوت الأول (١٧٠٦ — ١٧٠٨)

وإليه أنفذ لويس الرابع عشر لونوار دو رول الذى كان يتولى أعمال القنصلية الفرنسية فى دمياط . ولكن لونوار قتل فى طريقه إلى الحبشة فى سنار بأمر ملكها . فغضبت الجالية الفرنسية فى مصر لذلك الحادث وطردت جميع النوبيين الذين كانوا فى خدمتها . هذا ومما يؤثر عن الإمبراطور تكلا هيمانوت أنه كتب إلى والى مصر يهدده بمنع ماء النيل عن مصر إن هو عاد إلى التنكيل برسله ، وخاصة ماحدث لرسوله مراد السورى الذى أوفده إلى لويس الرابع عشر بصحبة المسيو بونسيه .

ويرى الناظر أمام مصب نهر أبّاى الصغير جزيرة داق وهى أكبر جزر البحيرة ، وهى مستديرة بعض الشئ ، يبلغ قطرها نحو خمسة كيلومترات ، وأرضها خصبة مزروعة حبوبا وقطنا وبنّا ، وهى ترتفع عن مستوى سطح الماء فى البحيرة عشرة أمتار تقريباً ، بها خمس كنائس بدياراتها ، وأجملها موقعاً كنيسة قوتا مريم المنعزلة القائمة وسط حقول مغطاة بخضرة كثيفة .

وفى هذه الجزيرة القرية الوحيدة التى يؤذن للنساء بالإقامة فيها . وربما رجع هذا التساهل إلى ان الكنائس الخمس الموجودة بالجزيرة ليست على الشهرة التاريخية أو القصصية التى لغيرها . فإن الجزر التى بها ديارات يحرم على النساء دخولها . وقد سرى هذا التحريم أيضاً على الإناث من الحيوان (كما هو معروف عن جبل آتوس فى بلاد اليونان الآن) .

وفى جنوب داق الشرقى على مسافة كيلو متر واحد تقع جزيرة داجا ، وهى مستديرة يبلغ قطرها ١٢٠٠ متر تقريباً ، وهى صخرية بركانية ، ترتفع نحو ٩٠ متراً فوق سطح الماء . وتطل منها كنيسة اسطفانوس المستطيلة ، وقد تم ترميمها بعد أن دمرتها الصاعقة سنة ١٨٨٠ . وإلى جانب الكنيسة دير نجا من الصاعقة ، يحفظ عدداً من رفات براطرة الحبشة ، أو بالحرى صناديق تحوى جماجمهم .

ومن بين البراطرة يكونو أملاك (١٢٧٠ — ١٢٨٥) وهو رأس الأسرة السليمانية الذى نقل عاصمة الملك من أكسوم العاصمة القديمة إلى تجولات . وكانت بينه وبين العرب حروب دارت عليه . وهو الذى راسل الظاهر بيبرس وراسل الإمبراطور ميخائيل الثامن فى القسطنطنية .

وفى الدير نفسه رفات الإمبراطور داود الأول (١٣٨٢ — ١٤١١) ،

وهو الذى اشتدت فى أيامه الحرب بين العرب والأحباش . وقد ذكر المقريزى أن هذا الإمبراطور أرسل إلى السلطان برقوق ٢٢ جملا محملة بالهدايا . وكان مغرماً بركوب الخيل ، وقد لقى حتفه تحت حوافر فرس جموح

وفى هذا الدير ايضاً رقات الإمبراطور زرأ يعقوب (١٤٣٣ — ١٤٦٨) وكان عصره عصر إحياء العلوم فى الحبشة ، وهو أول من استعان بالأجانب فى كثير من الأعمال الإنشائية . ومما يذكر أن أحد الرهبان من طليان البندقية صور له العذراء تحمل الطفل يسوع المسيح على يدها اليسرى كما جرت العادة بذلك فى البلاد الغربية ، فثار الأحباش لذلك وأرادوا تحطيم الصورة ؛ لأن العادة جرت فى الحبشة على عكس ذلك أى أن يصور الطفل محمولا على اليد اليمنى ؛ لأن اليد اليسرى تكون للتحقير ، واليمنى للتشريف .

وفى هـذا الدير الإمبراطور زادنجل (١٦٠٣ — ١٦٠٤) وهو الذى راسل البابا كليمنسيوس الثامن ، ثم راسل الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا إذ اقترح عليه أن يزوج ابنته من ابنه ، وكذلك رغب إليه أن يوجه إليه عدداً من الأسبان ليقيموا فى الحبشة حتى يمتزج الشعبان .

وفى الدير مومياء الإمبراطور فاسيلادس أعظم براطرة الحبشة ، وهو الذى بنى مدينة جوندار واتخذها عاصمة لملكه وشيد فيها الحصون التى تعتبر من أعظم آثار الحبشة . وقد استعان فى بنائها بصناع مهرة من مصر والهند كانوا يعملون تحت إشراف فنيين من البرتغال . وهو الذى طرد المرسلين اليسوعيين من بلاده ، وأعاد بناء كنيسة أكسوم بعد أن خربها محمد جرانيا . وهنا يقول الرحالة بروس الاسكتلندى : إن بعض التحف القديمة أعيدت إلى الكنيسة بعد أن كان خبأها الرهبان زمنا فى جزر بحيرة طانا .

أما الجزر الواقعة شمال البحيرة فتجد فيها آثاراً كثيرة لقصور وكنائس وديارات خربها محمد جرانيا ، ثم رمم بعضها . وعاد الدراويش أيام ثورة المهدى إلى تخريبها وإحراقها ، فلم ينج منها إلا القليل مثل دير مندابا فى جنوب شبه جزيرة جورجورا حيث يقيم الآن مائة وخمسون من النساك الذين اشتهروا بزهدهم وتقشفهم .

وفى الكنائس والديارات القائمة على جزر بحيرة طانا ثروة من المخطوطات المكتوبة على الرق باللغة الحبشية القديمة (الجعز) التى لا تزال لغة الكنيسة

فى الحبشة . وعرفت إحدى جزرها وهى كبران بأنها أصلح الأمكنة لحفظ المخطوطات وإخفائها ؛ فإليها يرجع الفضل فى إنقاذ عدد كبير من المخطوطات أيام الاحتلال الايطالى ، كما أخبرنى بذلك رئيس ديرها .

ويحس المتجول فى أى ناحية من نواحى الجزر أو فى المناطق المحيطة بالبحيرة بأنها كلها مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بتاريخ الحبشة فى ناحية الدين والسياسة .

حالة السكان

تعتبر منطقة بحيرة طانا بالإضافة إلى الحبشة من المناطق المكتظة . وسكانها خليط من عناصر كوشية وسامية من الأجو ومن الأمهرا وهم يدينون بالمسيحية . ويقطن فى المناطق الغربية منها بقايا قبائل لا يزال أفرادها على وثنيتهم وعاداتهم الفطرية . ومع أن جزر البحيرة آهلة برجال الدين الذين وقفوا حياتهم على العبادة والتنسك ، فإن سكان شواطئ البحيرة على جانب كبير من النشاط التجارى .

فهناك مركزان تجاريان ، يقع أولهما على شاطئ البحيرة الجنوبى الشرقى فى قرية قوراطا التى اشتهرت منطقتها بزراعة البن والموالح ، وهى ميناء تجارية لقبائل مقاطعة البيجامدر .

أما المركز الثانى فهو قرية تصحى على الشاطئ الجنوبى الغربى من البحيرة ، ويزرع البن بجوارها ، وهى الميناء التجارية التى تتجمع فيها تجارة السودان بهذا الجزء من الحبشة .

وبالقرب من البحيرة عدة مدن اشتهرت بتاريخها . ففى شرقها دبراتابور التى ترتفع ٣٠٠٠ متر تقريباً فوق سطح البحر ، وهى ملتقى الطرق بين مقاطعة الجوجام والتيجرى ، وبين جوندار وولو ، وهى تقع فى منطقة صخرية وسط غابة من أشجار الكافور . وقد اعتبرت فى تاريخ الحبشة من الحصون المنيعة حتى إن بعض البراطرة اتخذها فى القرن الماضى عاصمة للمملكة . وهى الآن مركز مقاطعة البيجامدر .

وإلى جانب البحيرة الشرقى قرية إيفاج الواقعة فى وسط غنى بكرومه ، وقد عدها الطليان من الأوساط الصالحة لسكناهم ومحط استعمارهم . وهى

لا تزال إلى الآن سوقاً تجارية تتجمع فيها حاصلات الجهات الخصبة التى تحيط بها .

وتقع مدينة جوندار شمالى البحيرة على ارتفاع ثلاثة آلاف متر ، وقد كانت عاصمة أتيوبيا فى القرنين السابع عشر والثامن عشر . بها أربع وأربعون كنيسة قديمة ، وهى وسط تجارى تجتمع فيه الطرق التى تربط مصوع ببحيرة طانا .

أما المنطقة الغربية والشمالية الغربية من البحيرة فرتبطة منذ أقدم الأزمنة بالسودان . وكانت من أولى المناطق التى استهدفت لغارات الدراويش وتخريبهم ، كما يشهد بذلك آثار الكنائس والهياكل هناك . وقد حفظ لنا التاريخ أيضاً أنها استهدفت لجيوش قدماء المصريين فى الأسرتين الثانية عشرة والثامنة عشرة من قبل .

ويصيد سكان البحيرة السمك ، وبذلك عرفت قبيلة الويطو التى تسكن شاطئ البحيرة الشرقى ، كما عرفت بالقنص وصيد فرس البحر الذى يكثر فى البحيرة . وهى من بقايا القبائل الوثنية القديمة التى لا نعرف منشأها على وجه التحقيق ، ولا يزيد عددهم على ألف . وهم من بقايا السكان الأصليين ، وقد اشتهروا بغبائهم الذى يعتبر مضرب الأمثال عند الأحباش ، وهم يعدونهم من الجنس المنحط الذى كان سترق مثل الشنقلا (بنى شنقول) والوجا . ويتنقل الويطو بين هذه الجزر وشواطئ البحيرة على عوامات مصنوعة من القصب أو البردى يسيرونها بمجاذيف من قصب البمبوس يضربون بها الماء ؛ إذ أن المجذاف العريض لم يعرف عندهم .

هذا وصف مجمل للبحيرة وجزرها وشواطئها وأهلها ، قصدنا إلى عرضه قبل أن نتحدث عن المشروع وتاريخه وفوائده .

وهذا يبين لنا ما سيقابل تنفيذ المشروع من عقبات أو اعتراضات أو ما سيقابله من استعداد وتسهيلات . كما يساعدنا على تفهم الأسباب التى تعطل من أجلها تنفيذ المشروع إلى اليوم .

مراد كامل

[يتبع]